

سجلات الرواية والتاريخ – في الحدود المفاهيمية والتداخلات الوظيفية.

Debates of the novel and history
(in conceptual boundaries and functional overlaps)

*عماري فاطمة

جامعة البليدة 2 – لونيبي علي، ef.ammari@univ-blida2.dz

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية.

تاريخ النشر: 2024/12/27

تاريخ القبول: 2024/10/21

تاريخ الاستلام: 2023/12/24

ملخص: تركز هذه الدراسة على بيان حدود اشتغال الرواية على المادة التاريخية، برصد طبيعة العلاقة القائمة بين الرواية كتمثيل سردي والتاريخ كمرجع لتوثيق الحقائق والوقائع، وذلك ببيان أهم المفاهيم والتداخلات التي تشكل الخطابين الروائي والتاريخي على عدة مستويات، بالبحث عما يمكننا من فهم وإدراك حقيقة تعالق التاريخي بالروائي، ومن أجل تحقيق هذا الإدراك لابد من إبراز نقاط التفاعل بين هذين النصين، بتوضيح ماهية بعض المصطلحات ذات الصلة بالموضوع.

وهو ما أوصلنا في الأخير إلى فهم حدود الرواية التاريخية، كعمل روائي تخيلي بالدرجة الأولى، الهدف منه تصوير حالة حضارية لمجتمع ما خلال فترة زمنية مخصصة، وهي بذلك تعدّ بنية سردية تتعالق فيها الأزمنة بالأمكنة مع الأحداث المفترضة أو المتخيلة أو التي حدثت حقيقة، مع درجات في العدول عن الواقع، أي أنها تعتمد على خلفية تاريخية تشكلت قبل تأليف النص الروائي.

كلمات مفتاحية: الرواية، التاريخ، الرواية التاريخية، التخييل، التوثيق.

Abstract: This study focuses on clarifying the limits of the novel's use of historical material, by monitoring the nature of the relationship existing with the novel as a narrative imagination and history as a reference for documenting facts and events, by explaining the most important concepts and interactions that constitute the narrative and historical discourses on several levels, by searching for what enables us to understand and perceive the truth of the relationship between the historical and the novelist.

In order to achieve this understanding, it is necessary to highlight the points of interaction between these two texts, by clarifying the nature of some terms related to the topic.

Keywords: Novel ; history; historical novel; imagination; documentation.

*المؤلف المرسل: عماري فاطمة، الإيميل: ef.ammari@univ-blida2.dz

1. مقدمة:

إن أول ما يعلق في أذهاننا عند ذكر الرواية التاريخية كظاهرة أدبية سجالية بين الرواية والتاريخ، تلك العلاقة الحضورية الخاصة بين الخطابين، الروائي والتاريخي، علاقة تستند على تعالق "التخييلي" كعنصر مهيم في عملية بناء الرواية، و"المرجعي" كجانب ضروري خلال عملية نقل وتوثيق التاريخ.

من أجل فهم حقيقة هذه العلاقة بين الروائي والتاريخي، نجد أنفسنا نتساءل نظريا عن الطريقة التي جعلت الرواية تنسج علاقات خاصة مع التاريخ، وكيف شكلت هذه العلاقات تفاعلا مع التاريخ؟، وبأي الوسائل تحوّل التاريخ إلى جزء من التخييل الذي يشغل عليه الروائي؟ وما هي الوظيفة المسندة للتاريخ ضمن هذا الإنتاج الإبداعي؟

كل هذه الأسئلة تعد روافد لمنبع واحد، يحقق فهما وإدراكا لحقيقة العلاقة بين الرواية - كشكل من أشكال الفن الإبداعي - والتاريخ كمصدر لتوثيق الماضي، ومن أجل تحقيق هذا الإدراك لا بد من إبراز نقاط التفاعل بين النص الروائي التخيلي والنص التاريخي التوثيقي.

2. الرواية التاريخية بين الواقع والتمثيل:

2. 1. حدود الرواية :

كثيرة هي المؤلفات التي تناولت فن الرواية دراسة ونقدا وإبداعا، هذا الفن الذي فرض وجوده في الساحة الأدبية، بل وأصبح أكثر الفنون رواجاً وانتشاراً لدى القراء والمبدعين على السواء، يبدو كعمل متعدد المعنى بصفة واسعة، حتى صعب تحديد تعريف دقيق جامع مانع ملائم لها، وهو ما "يدل على حيوية التعريف وخطره في الكشف والإضاءة وبيان الماهية وتحديد العناصر الجوهرية"¹، نظراً لشساعة ميدانه وامتلاكه لقدر كبير من الحرية موضوعاً وصياغة،

- الرواية لغة:

الرواية مصدر "روى" فهو "راو" في الشعر والحديث من قوم رواة، كأن تأمر أحدا فتقول له: انشد القصيدة يا هذا، ولا تقل: اروها، ويقال روى فلان فلانا شعرا إذا رواه له حتى حفظه من كثرة الرواية عنه .. ويقال أيضا رويته الشعر ترويه أي حملته على روايته²، والرواية في الشريعة الإسلامية جمع رواة، وهي نقل الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم، و الرواية هو كثير الرواية، والتاء للمبالغة في صفته بالرواية³. أما الروائي في الأدب ؛ فهو منسوب إلى مؤلف الرواية، وجمعه روائون.

والرواية جمع روايات أي أُنْما مأخوذة من قصّ الخبر، والحديث إذا ساقه وأورده بحسب وقوعه وأصله من قص الأثر وتتبعه شيئا بعد شيء، فالقصة في الأصل بمعنى الخبر ثم نقلت إلى القصة التي تكتب⁴، لتصبح كيانا أدبيا له خصائصه الفنية والجمالية يعرف في أبسط صوره بالقصة النثرية الطويلة.

- الرواية اصطلاحاً:

تأخرت الرواية كفن له أسسه وقواعده عن الظهور مقارنة بالأجناس الأدبية الأخرى كالمسرحية مثلاً، فالرواية الفنية ظهرت في العصر الحديث نتيجة تحولات اجتماعية غير مسبوقة، تضمنت الثورة العلمية والبرجوازية والثورة القومية منتهية إلى مجتمع جديد، يؤمن بالحرية والعدالة والمساواة فوجهت اهتمامها إلى الإنسان، من أجل معالجة شؤونته وواقعة⁵.

الرواية ROMAN يقول عنها آلن روجر أنها "نمط أدبي دائم التحول والتبدل، يتسم بالقلق بحيث لا يستقر على حال"⁶، كما تعدّ: "ضرباً من الخيال النثري له مهمة خاصة به، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية، بعد أن نضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط، متباعدة كل فعل إلى أدق أجزاءه وتفصيلاته، وسوابقه ولواحقه، موهلة في دخيلة النفس حيناً لتبسط مكنونها أثناء وقوع الفعل، مستعرضة الآثار الخارجية للفعل حيناً آخر، لا تترك من جوانبه وملحقاته ونتائجه شاردة ولا واردة إلا سجلها في أمانة وصدق، كما تحدث في الحياة الواقعية التي يخوضها الناس ويمارسونها"⁷، كما يصفها ميخائيل باختين Mikhail Bakhtin بأنها لا تخضع لأي قانون حيث تقوم على مراجعة أشكالها السابقة باستمرار، هذا ما يفسر كثرة التعاريف التي أطلقت عليها، فهي تعدّ "حكاية تروى عن الناس من حيث الأحداث التي تقع لهم وموقفهم من

هذه الأحداث وتفسيرهم لها في صياغة فنية تقدّم فيها المشاهد بطريقة متماسكة، بحيث تنمو وتتآزر بمنطق السببية للوصول إلى الخاتمة"⁸، كما تعدّ المرآة العاكسة لواقع الإنسان في مجتمعه، أما أحداثها فهي نتيجة لصراع الفرد مع الآخرين، ويتمخض الصراع عن التلاؤم أو التنافر بينه وبين مجتمعه، والقارئ يخرج في نهاية القراءة بعبرة عمّا يمكن أن يحدث للإنسان في مجتمعه⁹، فالرواية كإنتاج أدبي عبارة عن فن ذو كيان تخيلي إبداعي، ينبثق وجوده من تضافر أحداثها وتعلق شخصياتها وتتابع منطقها السردية والزمني.

- أنواع الرواية :

تختلف الروايات اليوم باختلاف نسق تأليفها وأغراضها الأدبية، فمنها الخيالية والتهذيبية والتاريخية والعلمية والأدبية وغير ذلك، ويعود ذلك إلى حجم الجرعة المضمونة التي تقدمها الرواية، فإذا تفوّق المضمون التاريخي صارت تاريخية وإذا تفوّق المضمون الغرامي صارت رواية غرامية وهكذا دواليك.

تعدّ الرواية كمثل غيرها من أشكال السرد ذات قيمة من حيث موضوعها الدال، الذي يطفو كمحدد نهائي لنوعها، فمنها الرواية النفسية أو السيكولوجية والرواية البوليسية، غير أنّه يمكن حصر الروايات عامة في نوعين أساسيين هما الرواية الخيالية والرواية التاريخية¹⁰.

الرواية الخيالية: يعتمد فيها الروائي على الابداع الفني وقدرته على توظيف التخيل الروائي، وتنقسم إلى نمطين هما: الرواية الاجتماعية و الرواية الغرامية¹¹.

الرواية التاريخية : تعتمد في إطارها العام على التاريخ، ولكن الكاتب يبني أحداثه ويطوّرها ويرسم شخصياتها في شيء من التصرف ولا يتقيد إلا بالخطوات الأساسية الخاصة بالأحداث التاريخية، وتعدّ أكثر هذه الأنواع رواجاً، لما نالت من بالغ الاهتمام إبداعاً ودراسة، فهي وسيلة إبداعية اعتمدها الإنسان المعاصر لمراجعة ماضيه وتراثه الثقافي والحضاري، تمكّنه من إشباع حنينه إلى الماضي آخذاً العبرة من المواقف السالفة، عبرة تعينه لمواجهة مصاعب الحياة الراهنة، محافظة له على هويته وأصالته.

1. 2. حدود التاريخ:

- التاريخ لغة:

له عدة معاني، فهو في الأصل كلمة يونانية logographe وتعني فعل النظر أو شاهد العيان¹²، أما لفظة تأريخ فتعني نهايته ووقته الذي ينتهي إليه، و لهذا يقال فلان تأريخ في الجود، وقيل معناه التأخير، ويزعم البعض أنه مشتق من كلمة "تأريخ" العبرية بمعنى "قمر" أو "يرخ" بمعنى الشهر وبذلك فالتاريخ هو التوقيت، وأنّ لفظة تأريخ تعني الزمن أو الحقبة¹³، وأستخدم هذا المصطلح لأول مرة عند العرب، عندما أدخل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه التقويم الهجري.

- التاريخ اصطلاحاً :

جاء بيان هذا المفهوم في سياقات عديدة، تختلف باختلاف زاوية النظر إلى ماهيته، نذكر منها: أنّه يعدّ علماً يبحث عن حوادث البشر في الزمن الماضي من خلال عملية سرد لحدث يتضمن تعيين أوقاته وبيان أسبابه¹⁴، كما عرّف بأنه علم يستنطق

الماضي¹⁵، كما يعدّ عملية بحث واستقصاء الإنسان واقعة إنسانية منقضية، يسعى للتعرف على أسبابها وآثارها¹⁶، كما اعتبر مقارنة عارفة تفصل بين الماضي والحاضر المختلف عنه، تجعل الماضي في الوعي التاريخي وعيا بالحاضر¹⁷، وبصفة شاملة يدلّ التاريخ اصطلاحاً على أحداث جرت وانقضت زمنها، تتعلق بوقائع زمانية لأمة ما، يسرد منه خلاله المؤرخ الأحداث التي وقعت لها فعلاً، ويعرض خصائص مراحلها التاريخية والظروف التي أدت لحدوث التغيرات داخل مجتمعاتها.

2. 3. مفهوم الرواية التاريخية:

لغرض فهم ماهية الرواية التاريخية لا بد لنا من فهم عناصرها الأولية، والتي ساهمت في تشكيل لهذا النوع الروائي وتكوين علاقاته السجالية، ولعلّ أبرزها ثنائية (الرواية/التاريخ)، التي ربطت الرواية بالتاريخ لتنشئ نوعاً خاصاً عرف بالرواية التاريخية¹⁸، وقبل الخوض في طبيعة هذه العلاقة، نضع تعريفاً للرواية التاريخية كمنطلق أولي لا بد منه لولوج إشكالية هذه العلاقة. فالرواية التاريخية عمل سردي يسعى لإعادة بناء حقبة من الماضي، أليته في ذلك التخيل، حيث تتداخل شخصيات تاريخية بأخرى متخيّلة¹⁹، تتشارك فيها الأحداث وتتجاوز ضمن مجموعة أحداث التاريخية في قالب إبداعي وجمالي، يتأسس وجوده على النص ومدى توافقه أو تعارضه مع الواقع، يمكن اختصارها بعدّها رواية تحاور موضوعاً تاريخياً.

3. سجلات الروائي المتخيّل والتاريخيّ الموثّق:

بغية فهم طبيعة العلاقة بين الرواية والتاريخ، ولأجل فهم حدود هذه العلاقة، لا بد لنا أولاً من التّوجه لفهم جوهر بعض الثنائيات الخفية التي تحكمها مثل (المؤرخ/الروائي)، (الواقع/المتخيّل)، (خطاب تاريخيّ/خطاب روائي).

2. 1. ثنائية المؤرخ / الروائي:

إنّ العبا الأكبر في عملية التأريخ يتحملها المؤرخ، بوصفه القائم بهذه العملية، فهو الفاعل المتحكم في دينامية العملية التوثيقية، وكل ما يقال عن عمليات التوثيق هو قول في كفاءات تعامل المؤرخ مع المعطيات التاريخية، وفي هذا الصدد يقول العروي: "المؤرخ لا يفسر بل يتفهم ويفهم"²⁰، لذا وجب عليه التحلي بالحياد خلال عملية الفهم والتّفهم، والتي تقتضي بالضرورة التمسك بالموضوعية كشرط أساسي في عملية سرد وبناء النصّ التاريخي، ذلك أنّ الموضوعية لوحدها توفر لنا العمل الأقرب إلى الحقيقة الواقعية، فتتجلى خلالها صفات أخرى لا تقل أهمية عنها لدى المؤرخ، كالأمانة العلمية في نقل الوقائع التاريخية واستقلالية الرأي، مع النزاهة في تحليل الأحداث، المحافظة على ملامح الشخصية التاريخية.

غير أن هذا المنظور الموضوعي يصاب بارتكاب واضطراب شديدين، عندما ترتبط المادة المستند عليها في بناء تاريخ أمة ما بالهزيمة والانتصار، ذلك أن المهزوم يسرد الأحداث بطريقة تصوغ انهزامه، بل وتبرز بها عدم اعترافه بالهزيمة، أما المنتصر فيأتي بتاريخ يمجّد نصره فلا يكتفي بذلك، بل يكتب تاريخ غريمه كما يريد ويشاء، والحصيلة تاريخ مشوّه وحقيقة مبتورة، وبذلك يصبح التاريخ خاضعاً لثنائية الهزيمة والانتصار²¹، لذا ألحّ العارفون بهذا المجال على ضرورة الالتزام بثنائية مناهضة لثنائية السلطة، وهي "الاغتراب الإنساني والبحث عن المعنى"²²، تمكّن كلّ من المؤرخ والروائي من كتابة تاريخ يرجو الحقيقة ويتقصاها، فالسلطة قلصت من حرية المؤلفين والروائيين والمؤرخين على السواء، وأدت لانحزام الإنتاج الفني عموماً مقارنة بغيره من الإنتاجات.

وهو ما جعل الروائي يقاسم المؤرخ التزامه القومي، في حين لم تقاسم الرواية النص التاريخي تأويلاته؛ بل تجاوزتها إلى البحث عن أسباب تصوغ وقوع الأحداث ضمن نسيج معين دون آخر، ذلك أن للروائي من الحرية ما ليس للمؤرخ، الذي قد

ينقل الوثيقة التاريخية بلا نقد أو مساءلة، بينما يقارن الروائي بوقائع الحياة، وبذلك تصبح الوقائع الحياتية مرجعا للوثائق عند الروائي إذ "يكتب التاريخ مقتفيا آثار الوثائق المتناثرة"²³.

فالمؤرخ يتحدث غالبا عما كان، بينما يتحدث الروائي عما كان وعما يجب أن يكون، محررا الماضي من قيود القراءة الواحدة²⁴، إذ ينقض أحادية القول التاريخي بأقوال متعددة، مرجعها التأمل في واقع الحدث والاحتمال، أي تعدد القراءات للنص التاريخي اعتمادا على قدرته التخيلية.

هذا ما جعل الروائي يتقمص دور المؤرخ، فيستخدمه وهو يرصد طبيعة الحدث والشخصيات الفاعلة فيه، ويستبعده بتوظيفه للخيال لتبرير وقائع سكت عنها المؤرخ أو أغفل عنها، وهو بهذا يستدرك قصور المؤرخ.

سئل نجيب محفوظ عن العلاقة بين الرواية والتاريخ فقال: "في رأيي أنّ العلاقة وطيدة، فالرواية عبارة عن استعراض للحياة اليومية بكل مشاكلها وقضاياها وأشخاصها... هذا جزء من التاريخ، لم يكتبه المؤرخون، ثم إنّ التاريخ عبارة عن أحداث وأشخاص وتفسير ورؤية، والرواية كذلك"²⁵.

نجيب محفوظ في هذه الإجابة يؤكد أنّ الأديب يستدرك تقصير المؤرخ، ويسجل ما عفا عنه ويرصد ما يغفل عليه أو لا يجرأ على قوله، يستدرك قصور المؤرخ مرتين، مرة حين يكتب عما زهد عنه المؤرخ، ومرة ثانية حين يعتمد على واقع تاريخي يذيه في رؤية روائية²⁶.

فالروائي يلعب دور الطبيب المعالج لمريض يعاني من علة النسيان أو فقدان الجزئي للذاكرة، فيحاول بطرق معينة إعادته إلى سياقه الحياتي، بتذكيره بباقي الأحداث المنسية، والتي قد تحمل من المأساوية ما يدفعه لرفض عملية الاسترجاع، غير أنّ الأمر لا يستقيم دون تذكرها جميعها، وطرق العلاج أشبه ما تكون بخيال الروائي، وهذا المريض أشبه ما يكون بالتاريخ. وبذلك قد يصرف الروائي المؤرخ، ويذهب إلى ما وراء معلوماته، مصرحا بحقيقة لا يعرفها المؤرخ أو يعرفها ولا يتجرأ على البوح بها.

3. 2. ثنائية الواقع / المتخيل:

المتخيل بناء ذهني، أي أنّه إنتاج فكري بالدرجة الأولى، يحيل إلى الواقع ويستند إليه ويجدد نسج بُناه بإعادة صياغته وتشكيله، أي أنه يأخذ من الواقع مادته، وهو من جهة أخرى يمثل جانبا من جوانب الواقع، وأحد مكوناته، بينما الواقع معطى حقيقي موضوعي، يحيل إلى ذاته²⁷.

من خلال هذا التعريف للمتخيل والواقع تبرز أولى نقاط الاشتراك بينهما، المتحلية في كون المتخيل يوصل إلى الواقع، والواقع يوصل إلى ذاته، أي أنّ المتخيل نوع من الممارسة الواقعية، والتي تكون في شكل إعادة إنتاجه أو ترتيب علاقاته، أو حتى تشكيله من جديد، فالعلاقة التي تربطهما تساهم في تلاهما، فهي علاقة متينة²⁸.

وتوظيف هذه الثنائية في الرواية؛ يجعل الرواية تؤلف بين الشخصيات الواقعية والمتخيلة، فتتحوّل الشخصيات الواقعية إلى شخصيات متخيلة، وتشاطرها الزمان والمكان والموضوع، وهذا بتأثير من خيال الروائي.

والشخصيات المتخيلة تشهد على حدث تاريخي، حتى تبدو وكأنها واقعية - وهذا من تأثير الواقع - فتألفها، وانسجامها يخلق خطاباً روائياً عن التاريخ، فيبدأ بزمان وينتهي بآخر، ذلك أنّ الموضوع الأساسي للتاريخ هو الواقع، بينما تنبني الرواية على المتخيل، ومنه فالتاريخ يحتمي بما هو حقيقي واقعي، بينما الرواية تشتغل في نطاق الخيال.

3.3. ثنائية الخطاب التاريخي / الخطاب التخيلي:

كلاهما شكل من أشكال التواصل بين أفراد المجتمع، غايته الأولى تبليغ رسالة معينة ذات محتوى معين، وكلاهما يعتمد على اللغة، وما تملكه من طاقات تعبيرية لتوصيل رسالتها، لغرض سرد حدث معين، فالحدث من القواسم المشتركة بينهما، باعتباره حجر الزاوية في بناء هيكل كل خطاب، وكنتيجة متوقعة يعتبر الزمن كذلك من نقاط الاشتراك بين هذين الخطابين، المتمثل في لحظة وقوع الحدث، كما يشتركان في آلية سرد الحدث.

هي نقاط تجسد مجال الاشتراك والالتقاء في هذه الثنائية، أما نقاط الاختلاف فنجملها في محاور أربع هي:

- **الماهية:** يتشكل الخطاب التاريخي ويتأسس داخل نسق معرفي غايته إثراء الفكر البشري أو تقديم تفسير أو تعريف بحضارة أو ثقافة ما، وهو يحكي ما حدث حقيقة²⁹، أما الخطاب الروائي فيتشكل في إطار جمالي، غايته عرض حالة إنسانية أو مجموعة أحداث، لها دورها الخطير في تغيير مسار حياة الفرد أو الجماعة، والتي تدرج ضمن سلسلة من التحولات التي تظهر من خلال تشكيلات لغوية، القصد منها إنتاج معرفة مجتمع أو ثقافة معينة، وتتجسد بحكي ما يمكن أن يحدث، فتصوّر لأجل ذلك مجموعة من الأفعال³⁰.

- **اللغة:** قلنا آنفاً أن الخطابين التاريخي والروائي يشتركان في اعتمادهما على اللغة، ولكنهما يفترقان في طريقة استعمالها، فاللغة مشحونة بسياقات ثقافية وحضارية معينة، لأجل هذا فكل خطاب يحاول أن يخلق للغة سياقات تقترب من مفهومه للحياة، فاللغة المشتركة بينهما تؤدي وظائف مختلفة، وقد حدد رومان جاكسون Roman Jakobson في تخطيطه الأولي لعملية التواصل مجموعة من الوظائف التي تقوم بها اللغة، هي الوظيفة التعبيرية والتأثيرية والشعرية والمرجعية والوجدانية والميتالغوية. فما هي الوظائف اللغوية التي يستند إليها كل نمط خطابي؟

الوظائف اللغوية داخل الخطاب التاريخي:

1. **الوظيفة المرجعية fonction référentielle:** تحيل إلى جملة من الحقائق المؤكدة تاريخياً³¹، والتي حدثت بالفعل في زمن سبق زمن سردها، وهكذا تشكل هذه الحقائق الإطار المرجعي الذي يحتكم إليه الخطاب التاريخي، ومجرد إسقاط هذا الإطار المرجعي يفقد الخطاب التاريخي كل صلاحياته.

2. الوظيفة الميتالغوية: *fonction métalinguistique* (اللغة الشارحة) والميتالغوية في الاصطلاح هي اللغة التي يكون موضوع دراستها لغة ثانية³²، وقياساً على هذا يعتبر الخطاب التاريخي خطاباً حول أحداث وخطابات أخرى (سياسية، اجتماعية، فلسفية...) هكذا تكون لغة الخطاب التاريخي لغة نقدية أو لغة شارحة للغات سابقة عليها.

3. الوظيفة التعبيرية: *fonction conative* وهي تخص بالدرجة الأولى الذات التي تستقبل الخطاب التاريخي³³، فهي تعيد كلام الآخر، بحيث يعبر الخطاب التاريخي عن أصوات الماضي بشهادات ونصوص ولغة يعيد تشكيلها المؤرخ، وبذلك تأثير من "الهو" الغائب إلى "الأنا" فيتكلم عنه ويجعله موضوعاً لخطابه.

الوظائف اللغوية داخل الخطاب الروائي:

1. الوظيفة الوجدانية: *fonction pathétique* نعني بها المشاركة الوجدانية بين المرسل والمستقبل³⁴، والتي تتجلى في مشاركة القارئ للمرسل وجدانياً خلال لحظات معينة، بشأن موضوع معين، سواء بالقبول أو الرفض.

2. الوظيفة الشعرية: *fonction poétique* وهي وظيفة لا تتحقق إلا بعناية فائقة لجمالية النص الروائي، من حيث نصيبه من الإتقان والإبداع الفني واللغوي³⁵، التي تركز الاهتمام على النص الروائي نفسه، اهتمام بالشكل والمحتوى مع التدقيق في إبراز جماليات اللغة وحسن استغلال طاقاتها، والتي لا يمكن امتصاصها إلا عن طريق النظم.

3. الوظيفة التأثيرية: *fonction émotive* فالروائي يحاول في استعماله للغة التأثير على مستقبل النص الروائي³⁶، وهي وظيفة هامة تستمد قوتها من الوظيفة الشعرية.

- الدلالة:

بما أن وظائف اللغة تختلف باختلاف النمط الخطابي، فحتماً أن الدلالة تختلف وتباين، إنّ كلّ من الخطاب التاريخي والخطاب الروائي يشكلان منزغاً لغوياً مختلفاً، يحيل كلّ منهما إلى عالم معين مخصوص، وهذا ما يفرق بينهما على المستوى الدلالي، الأول يحتكم إلى أيديولوجيا معينة توجه وتحمي مصالحه، أما الثاني فهو عمل تخيلي أدبي يحيل إلى العالم الذي يتكلم عنه، ذلك أنّ الخطاب الروائي ينتج أيديولوجيا خاصة به، فلا يعيد توليد أيديولوجيا جاهزة³⁷.

- الزمن:

يعد الزمن من أهم القضايا المشتركة بين الخطابين، كأساس لا يُستغنى عنه في العملية السردية، بغض النظر عن نمطها أو الهدف منها، فتبين وبغاية فائقة أبرز الفروقات بين ما هو تاريخي وما هو روائي. فالزمن التاريخي زمن طولي، أي سهم باتجاه مستقيم هدفه تأسيس علاقة بين الماضي والحاضر، يعتمد السببية كتفسير لهذا التواصل والاستمرارية³⁸، بينما يخالف الزمن الروائي ذلك، فلا يتتبع الزمن الطولي أو الكرونولوجي بل التابع الزمني، الذي يعد من جماليات النص، والذي يهتم بالعلاقة المنطقية في تواتر الأحداث بعيداً عن التناقض والتضارب.

4. جرجي زيدان بين الروائي والتاريخي:

إنّ سبب اختيارنا جرجي زيدان كنموذج للتحليل التطبيقي هو الشهرة الأدبية التي نالها من سلسلته الروائية "روايات تاريخ الإسلام"، والتي تتبع خلالها مراحل التاريخ الإسلامي، الممتد من أيام الفتح إلى دولة المماليك، كما ترتبط أهمية هذه الروايات في تقديمها للتاريخ بصورة مشوقة وصياغة تستثير القارئ وتشده إليها.

وأول سؤال قد يتبادر إلى ذهن قارئ أعمال جرجي زيدان الروائية هو: لماذا اعتمد على التاريخ في تأليفه الروائي، وما هي أهدافه من هذا الاختيار؟

لقد قدّم جرجي زيدان روايات تخيلية تقوم بالأساس على المادة التاريخية، أعاد خلالها صياغة التاريخ الإسلامي بأسلوب قصصي سهل، وهي الطريقة التي نالت اهتمام معاصريه من النقاد الذين تناولوها بالبحث والدراسة، فقد عالق جرجي زيدان بين التاريخي الواقعي وبين الروائي المتخيّل، لسبب رئيسي هو وجوب نشر التاريخ الإسلامي، حتى وإن اختلف مع النقد في طريقة النشر، وفي هذا السياق يقول: "...فقد رأينا نشره في روايات تلذ مطالعتها دون حصره في تاريخ مجرد من الفكاهة لا يفني بالغرض"³⁹، الذي جسّده في تعميم العلم بين الناس على اختلاف مداركهم وتفاوت معارفهم، وهو بهذا يفعل دور الوظيفة التأثيرية، حيث يرى أنّ خير قالب يساهم في تحقيق هدفه المنشود في تعليم التاريخ هو الرواية.

ثم يواصل تأكيده لمدى أهمية الاهتمام برغبات القارئ العربي في الكتابة السردية التاريخية؛ فيقول: "وقلما يميل الناس إلى مطالعة التاريخ مجرداً من الفكاهة إلا فئة قليلة من طلاب العلم"⁴⁰، وهو بهذا الرأي يجتهد تفعيلًا للوظيفة الوجدانية في خطابه الروائي.

ثم يرجع سبب اختياره لفن الرواية إلى قناعة راسخة لديه ويقين لا يداخله شك؛ أنّها أنجع وسيلة لترغيب الناس وتحبيبهم في مطالعة التاريخ والاستزادة منه⁴¹، وبها جعل من الرواية وسيلة لتوثيق التاريخ وتعليمه.

أما عن تعالق خطابه الروائي بالتاريخ فقد كان جلياً وواضحاً لدرجة وسم جلّ كتاباته السردية بالتاريخية، كروايات "فتاة غسان" و"أرمانوسة المصرية" و"عذراء قریش" و"17 رمضان" و"غادة كربلاء" و"الحجاج بن يوسف" وروايات تاريخية أخرى بلغ عددها إجمالاً اثنين وعشرين رواية، جعل من التاريخ فيها نصاً سابقاً، ومن الرواية نصاً أدبياً لاحقاً يتناصان تحقيقاً لأهداف تعليمية.

ولقد برز هذا الاهتمام بالمادة التاريخية كنتيجة لخلفية ثقافية علمية وأدبية واسعة بحكم شغفه بتصفح ثنايا الكتب التاريخية، والتي ضمنت له استمرارية الاطلاع، فتمنّى في أمهات الكتب التاريخية ونهل منها، بل وجعلها أهم المراجع في الكتابة الروائية لديه، وكذلك رحلاته العديدة وتواصله الكثير مع الشعوب الأخرى⁴²، التي جعلت منه مثقفاً دائماً الاحتكاك بالجماع العلمية العربية منها والأوروبية، دون أن تغفل عن إلمامه ومعرفته لكثير من اللغات التي مكنته من قراءة روائع الأدب الغربي في لغته الأصلية، ما فسح له مجالاً واسعاً لإمكانية التأثير بكتابهم البارزين⁴³.

وتحقيقاً لوظائف الخطاب التاريخي المرجعية يشير صبري حافظ إلى أن اللجوء إلى التاريخ لعند جرجي زيدان لم يكن بدافع حب القديم فحسب، بل محاولة لإيقاض إحساس القراء بالكبرياء الوطني و توفير عناصر الإلهام والقدوة لهم ويسهم في سعيهم للوصول إلى تحديد لهويتهم القومية بتذكيرهم بأجدادهم الماضية⁴⁴، إذ يؤكد فكرة الوظيفة المرجعية التي تفضي بضرورة معرفة الإنسان لماضيه الراسخ في تراثه الحضاري، كبنية أساسية لبناء هوية وطنية صلبة تتشكل ملاحظتها برصد المواقف السالفة، والاستفادة منها بغية تنشئة أجيال واعية توافقة للنجاح والتفوق العلمي الذي يحقق ازدهار وتطور الأمم و انتعاش مجتمعاتها على جميع الصعد.

5. مظاهر توظيف التّخيل التاريخي في روايات جرجي زيدان:

إنّ المطلع على روايات جرجي زيدان التاريخية يلحظ تشابه نّحج تأليفها⁴⁵، إذ يظهر هذا التّشابه بصورة جليّة في الصّفحات الأولى من كلّ رواياته، خاصّة ما تعلّق بإدراج المراجع التي استمد منها مادته، والتي جعلها لازمة لا تفارق أي عمل روائيّ، حرصاً منه على بيان الجانب التوثيقي، ودليلاً لاعتماده طريقة منهجة في التّأليف الروائي، مكنته من نسج خيوط سلسلته في رواية التاريخ⁴⁶.

وقد ذكر ذلك في مقدمة رواية "الحجاج بن يوسف الثقفي" التي يقول فيها: "...وأما نحن فالعمدة في رواياتنا على التاريخ وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقاً للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، ندمج فيها قصة غرامية، تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها فيصبح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص، إلا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة"⁴⁷، من ثمة يتجلى لنا منهجه فيما يلي:

- اختيار حدث من بين حوادث تاريخ الإسلام يجعله جوهر الرواية وموضوعها، و غالباً ما يتحرى الصلة بينه وبين موضوع الرواية السابقة، تحقيقاً لخاصية التعاقبية في سلسلته.

- توثيق الحوادث بالرجوع إلى ما كتبه المؤرخون عن هذه الحادثة، ثم يقوم بتمحيصها تثبيتاً للدقة التاريخية، التي تكفل له تحقيق الوظيفة المرجعية في خطابه، وهي مرحلة شاقة عبّر عنها في قوله "وقد عانينا المشاق الكبرى في استخراج حقائق تلك التواريخ من كتب القوم، فرمنا قرأنا المجلد الضخم، فلا نستفيد إلا بفقرة أو فقرتين، ولا تتم الحقيقة الواحدة إلا بمطالعة المجلدين أو الثلاث"⁴⁸، ويؤكد ذلك في موضع آخر فيقول: "فقضينا بضع عشر سنة ونحن لا تقع لنا شاردة إلا قيدناها، وملاحظة إلا حفظناها و تدبرناها"⁴⁹.

- البحث عن قصة غرامية خيالية لغرض دمجها ضمن سياق الحوادث التاريخية المنتقاة سابقاً، ومرد ذلك اقتناعه بنجاعة هذا السبيل في إذكاء رغبة القراء للتعرف على حوادث الماضي الموثقة تاريخياً في كتب يندر الإقبال عليها، فاعتماد التّخيل التاريخي له فاعليته وتأثيره المباشر على القارئ، يقول بهذا الصدد "أما إذا سبكن ذلك التاريخ في قالب رواية فإنّه يقرأه بشوق ولذة، فلا يلبث وهو يظن نفسه يطالع قصة فكاهية أن يتناول شيئاً من حوادث الإسلام يزيد رغبة في مطالعة تاريخهم"⁵⁰، فهو دائم الإلحاح على ضرورة الاحتيال في نشر العلم بين الناس، وضرورة مراعاة ميولاتهم واختلاف مستوياتهم، إذ يرى أن نشر التاريخ مجرداً لا يفيد إلاّ المثقفين ذوي الهموم المعرفية، لذا يجب سرد الحقائق التاريخية ضمن سياق الحكاية الغرامية، التي تمثل عنصر التشويق في الرواية.

- تحرير العمل الروائي الإبداعي وربط جميع أجزائها التخيلية والتوثيقية، بعد أن تمر حوادثها في ذهنه كتصور أولي لها، ذلك أن اعتماده على التاريخ كما ورد في الكتب لا يعني أبداً استعادته إثر عملية آلية بل يخضع لإعادة تركيب و ربط و تعديل بحيث تتماشى الأحداث التاريخية والشخصيات المتخيلة، التي تتشاطر المجالات الزمانية والمكانية وتتعلق دلالياً ولغويًا فيما بينها لتشيّد مبنى سردياً جمالياً متماسكاً.

6. خاتمة:

الرواية التاريخية، عمل روائي تخيلي بالدرجة الأولى، الهدف منه تصوير مجتمع معين في مرحلة حضارية مخصوصة، وهي كبنية تعتبر سرداً لمجموعة من الأحداث المفترضة والمتخيلة أو التي حدثت حقيقة، مع درجات في العدول عن الواقع، أي أنها تعتمد على خلفية تاريخية، متشكلة من مجموعة من النصوص المنجزة قبل النص الروائي المتحقق. وعليه؛ فالتاريخي والتخيلي يتداخلان ويتعانقان ويحاول كاتب الرواية التاريخية أن يعيد التاريخي إلى الروائي، بالاعتماد على آليات تمكنه من تحويل نص تاريخي إلى نص روائي، تتجسد هذه الآليات في خطوات ثلاث، وهي:

- عزل النص التاريخي عن الأنساق الاجتماعية والحضارية التي ولد فيها، ثم ربطه بأحداث مغايرة وجعله يتفاعل معها.
- ربط النص التاريخي بسياق جديد، وهو السياق السردى الذي يحتكم لجمالية السرد، لأجل تقديم نص تاريخي متصل بالنص الروائي، تمتن فيه الأحداث السردية وظيفة إفقاد التاريخ ميزة التابع والسببية المنطقية.
- إحياء النص التاريخي داخل شبكة من العلاقات الجديدة، حيث تتيح له خلق شبكة متعددة يشترك فيها التاريخي مع نظيره الروائي.

إن التّخيل التاريخي في الرواية، الظاهر في حضور الأحداث والوقائع المتخيلة ودمجها سردياً ضمن التاريخ الموثق، المتعلق بأحداث لها مجالاتها الزمانية وحدودها المكانية، والتي ثبت حضورها الواقعي في الذاكرة التاريخية، بصورة معلنة تجلت تعالقات التاريخي بالتخيلي خلال المسار السردى لروايات جرجي زيدان التاريخية، فقد جنح الروائي إلى تخيل أحداث تاريخية ممكنة في إطار تاريخي حقيقي، فانطلق في سرديته من المادة التاريخية الموثقة، لينشغل بعدها بإنتاج متخيل سردي يملأ به تفاصيل رواياته وجزئيات أحداثها وأفعال شخصياتها، وهو ما أدرجها فنيا ضمن الرواية التاريخية.

7. المراجع:

أ/ العربية:

3. ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث، مؤسسة التاريخ العربي، ط 3 (بيروت، 1956).
4. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج1، دط، (دون ذكر مكان الطبع، دت).
5. حسين التلباني، الرواية التاريخية عند جرجي زيدان مقدمة لنيل درجة دبلوم الدراسات المعمقة، إشراف الدكتور إبراهيم شعلان، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر (ماي، 1982).
6. حسين حمري، فضاء المتخيل، دراسة أدبية، (دمشق، 2001).
7. سعيد سلام، التناص التراثي في الرواية الجزائرية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر، (الجزائر، 1999).
8. سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، منشورات الاختلاف، ط1، (الجزائر، 2012).
9. سليمة عذاوري: الرواية والتاريخ، دراسة في العلاقات النصية، رواية العلامة لبن سالم حميش أنموذجاً، مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، قسم اللغة العربية وآدابها، (الجزائر، 2006).
10. عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية، مكتبة الشباب، (القاهرة، 1982).
11. عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، ط1، (المغرب، 2003).
12. عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، (الدار البيضاء، 1988).
13. عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، دار المعارف، دط، (مصر، 1968).
14. علي شلش: نشأة النقد الروائي في الأدب العربي الحديث: (د م، دت).
15. فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، (المغرب 2004).
16. قاسم عبد قاسم، أحمد إبراهيم الهواري، الرواية التاريخية في الأدب الحديث، دار المعارف، دط (القاهرة، 1974).

17. قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، (بيروت، 1990)
18. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 4، (القاهرة، 1970)
19. محمد كامل الخطيب، نظرية الرواية، وزارة الثقافة (دمشق، 1990).
20. محمد يونس نجم القصة في الأدب العربي، دار الثقافة، دط، (بيروت، دت)
21. المنظمة العربية للتربية، المعجم العربي الأساسي لاروس.

ب/ المترجمة:

22. روجر آلن، الرواية العربية، تر: حصة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة (1997)
23. هـ، ب تشارلتن، فنون الأدب، تر: نجيب محمود، لجنة التأليف والنشر، (القاهرة، 1959)

6. قائمة الإحالات:

- ¹ - عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية، مكتبة الشباب، د ط، (القاهرة، 1982)، ص 11.
- ² - ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث، مؤسسة التاريخ العربي، ط 3، مجلد 14، (بيروت، 1956)، ص 348.
- ³ - المنظمة العربية للتربية، المعجم العربي الأساسي لاروس - ص 563-564
- ⁴ - محمد كامل الخطيب، نظرية الرواية، وزارة الثقافة، دط، (دمشق، 1990)، ص 31.
- ⁵ - فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط 1، المغرب 2004، ص 5.
- ⁶ - روجر آلن، الرواية العربية، تر: حصة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، 1997، ص 7
- ⁷ - هـ، ب تشارلتن، فنون الأدب نجيب محمود، لجنة التأليف و النشر، ط 2 (القاهرة 1959)، ص 149-150 .
- ⁸ - عبد الفتاح عثمان، بناء الرواية، ص 11.
- ⁹ - فاطمة موسى، بين الأدبين، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة 1965)، ص 12، 13، نقلا عن سعيد سلام: التناص التراثي في الرواية الجزائرية، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، (الجزائر، 1999)، ص 96.
- ¹⁰ - علي شلش: نشأة النقد الروائي في الأدب العربي الحديث: مكتبة غريب دط، (دون ذكر مكان الطبع، دت)، ص 38.
- ¹¹ - علي شلش : نشأة النقد الروائي في الأدب العربي الحديث ص 38.
- ¹² - قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، ط 1، (بيروت 1990)، ص 12.
- ¹³ - المرجع نفسه، ص 15.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص 3.
- ¹⁵ - فيصل دراج، الرواية و تأويل التاريخ، ص 9.
- ¹⁶ - المرجع نفسه : ص 81
- ¹⁷ - المرجع نفسه : ص 32.
- ¹⁸ - سليمة عذاوري: الرواية و التاريخ، دراسة في العلاقات النصية، رواية العلامة لبن سالم حميش أنموذجا، مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي، إشراف الأستاذ : واسيني الأعرج، قسم اللغة العربية وآدابها، 2006/2005، ص 27.
- ¹⁹ - سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2012، ص 159.
- ²⁰ - عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي، ط 2، (الدار البيضاء، 1988)، ص 9.
- ²¹ - فيصل دراج، الرواية وتأويل التاريخ، ص 82
- ²² - المرجع نفسه، ص 83.
- ²³ - المرجع نفسه، ص 111.
- ²⁴ - المرجع نفسه، ص 267.
- ²⁵ - المرجع نفسه، ص 132.
- ²⁶ - المرجع نفسه، ص 132.
- ²⁷ - حسين حمري، فضاء المتخيل -دراسة أدبية - منشورات وزارة الثقافة، دط، (دمشق 2001)، ص 39.

- 28- المرجع نفسه ص 40.
- 29- المرجع نفسه، ص 74.
- 30- المرجع نفسه، ص 73.
- 31- المرجع نفسه، ص 83.
- 32- المرجع نفسه، ص 84.
- 33- المرجع نفسه، ص 84.
- 34- المرجع نفسه، ص 85.
- 35- المرجع نفسه، ص 86.
- 36- المرجع نفسه، ص 86.
- 37- فيصل دراج ، الرواية و تأويل التاريخ، ص 110.
- 38- حسن خميري فضاء المتنخل ، ص 89
- 39- قاسم عبد قاسم، أحمد إبراهيم الهواري، الرواية التاريخية في الأدب الحديث، دار المعارف دط القاهرة 1974، ص 200.
- 40- المرجع نفسه، ص 201.
- 41- عبد المحسن طه بدر تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، دار المعارف ،دط مصر 1968، ص 50.
- 42- حسين التلباني، الرواية التاريخية عند جرجي زيدان مقدمة لنيل درجة دبلوم الدراسات المعمقة، إشراف الدكتور إبراهيم شعلان، معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة الجزائر ماي 1982، ص 23.
- 43- محمد غنيمي هلال ، الأدب المقارن ، مكتبة الأنجلو المصرية ط 4 القاهرة 1970 ص 246.
- 44- روجر آلن الرواية العربية ص 50
- 45- عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، ص 103.
- 46- محمد يونس نجم القصة في الأدب العربي، دار الثقافة دط بيروت، دت ص 179.
- 47- عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي ط 1 المغرب 2003، ص 240
- 48- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دط، ج 1، دون ذكر مكان الطبع، دت، ص 10.
- 49- المرجع نفسه، ص 09.
- 50- قاسم عبده قاسم، أحمد إبراهيم الهواري ، الرواية التاريخية في الأدب الحديث ص 200.